أخبار المجنون القديمة

نشأتها وشكلها القصصي

البحث عن مصادر ابن قتيبة

الدكتور ستيفن ليدر

إنَّ الذي يهتم بالأدب القصصي لايجول في مروجه إلاَّ ويتوقف عند أخبار مجنون ليلى وأشعاره، لعلَّ ما يدعوه إلى ذلك الإعجاب بمصير العاشق ومغزى تجربته . أما ما يعنينا هنا فهو أهمية هذه القصة في تاريخ الأدب القصصي القديم.

لقد أنتج الأدب الفارسي قصة لشخصية المجنون تمثَّل فيها الحب الوجداني بأرقى صورة[1].

أما الأدب العربي، وفيه ظهر مجنون ليلى وحديث عشقه وهيامه، فإن ما وصل إلينا من الأخبار القديمة عن سيرة المجنون يدل على جاذبية قصّته، ورواجها بين الناس في الوقت الذي نشأ فيه أقدم صيغة محفوظة لهذه القصة[2]، إن قصص عشاق القرن الأول الهجري كثيرة وشائعة تصف الحب العفيف العذرى والهيام بمحبوب لا يمكن وصاله، ويودي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بصاحبه إلى الهلاك. وتروى هذه القصص على منهج الأخبار، مروية بالسند إلى راوٍ شهد الحادث أو كان معاصراً له.

ويتميز المجنون من بين هؤلاء العشاق الشعراء بشدة غرامه المضني، الطاغي على وعيه. وتتميز قصته بأنَّ شخصية المجنون التاريخية، وبعض تفاصيل سيرته، فيها شيء من الريبة[٣]. وقد جمع أبو الفرج الأصفهاني آراء بعض من شك في وجوده[٤].

ونلاحظ في الأخبار المروية عن مجنون ليلى ابتعاد المواد القصصية عن الواقع. إننا لا نستبعد أن لحكاية المجنون جذوراً في مصير شخص حقيقي، ولكننا حين نستعرض النصوص نرى موادَّ قصصية متعددة لاتكشف لنا ملامح الوقائع بصورة أكيدة. وكثيراً ما تأتي القصص بأوصاف مختلفة، وربما متناقضة، لحادث واحد[٥]، وتستخدم حوافزُ مطابقة لحوادث مختلفة ومستقلة[٦]. إضافة إلى ذلك فإن أسماء الرواة الذين تُسند إليهم القصص لا تُبرز الصلة بالواقع إبرازاً مقنعاً، وذلك لقلة شهود العيان وضعف شهادتهم[٧].

ويبدو مما ذكرنا أن رواة كثيرين ساهموا في جمع المواد الروائية، واشتركوا في إظهار القصة وترويجها على أشكالها المعروفة، ولم ينجحوا في البحث عن أصلها في التاريخ. ونتيجةً لذلك فإن نشأة قصة المجنون لم تزل غامضة. إن المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي استنتج، في أيامه، من تحليله لأخبار المجنون أن هذه الروايات لم تدخل مؤلفات العرب إلاَّ في منتصف القرن الرابع الهجري[٨]. وظن منشأها في العصر الأموي بعد موت المجنون بمدة قصيرة، وأن الرواة الأوائل طمسوا آثار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المجنون الحقيقي[٩]. ومن المعلوم أن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة هو أقدم مصادرنا لأخبار المجنون[١٠]، وقد أورد جملة من أخباره تعرض سيرة المجنون. ويدل ذلك على أنها كانت متداولة في عصر ابن قتيبة يعني نحو منتصف القرن الثالث الهجري. ولكننا نرغب عن الوقوف عند مجرد القول إنها كانت معروفة في عصرابن قتيبة، بل المطلوب أن نوضح نشأة هذه القصة ، ومغزاها في عصر نشأتها[١١] ولذلك نقترح اطلاعاً جديداً على أخبار المجنون الواردة في كتاب ابن قتيبة. يمكّننا البحث في أخبار مطابقة للأخبار عند ابن قتيبة من الكشف عن مصادره، وبه نصل الى قصة المجنون كما رُويت في بداية العصر العباسي ونرى فيها شكلاً قصصياً ماهراً جديراً بالتحليل، تُرسم فيه ملامح المجنون العاشق.

أما سيرة المجنون فلا توصف في هذه الأخبار إلاَّ عن طريق غير مباشر حيث يتكلَّم أهل المجنون عن بداية صبابته. فنرى في ذلك منهجاً قصصيًا يتجنَّب الإثبات لوجود المجنون شخصيةً تأريخية حقيقية. ونفهم كذلك أنَّ في هذه الروايات صنعة قصصية متطورة تدل على أنَّ الإبداع كان ضمن إطار النشاط الأخباري في هذا العصر لمَّا نقل الروايات القديمة وشكَّلها ووضع فيها ملامح جديدة.

باب مجنون ليلى في كتاب الشعر والشعراء يتضمن سبعة أخبار نعددها هنا ونضع لها عناوين تنبئُ عن محتوياتها لأننا سنرجع إليها أكثر من مرة خلال التحليل التالي: المروية (١) الشعر ص ٥٦٤، س ١١ - ١٤: محبة المجنون لليلى في صباه. المروية (٢) الشعر ص ٥٦٥، س ١ - ٧: مبادلة ليلى حباً بحبه ومرض المجنون من أجل حبه. المروية (٣) الشعر ٥٦٥ - ٥٦٦: التقاء نوفل بن مساحق بالمجنون ومحاولته إقناع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أهل ليلى بأن يزوجوها إياه. المروية (٤) الشعر ٥٦٦ ـ ٥٦٧ (رقم ٩٨٨): نزول رجل من بني مرة عند ليلى وحزنها لِما سمعتْ منه عن المجنون. المروية(٥) الشعر ٥٦٧ ـ ص ٥٦٨، س ٦ (رقم ٩٨٩): حج المجنون بعد إباء أبي ليلى أن يزوجه، وغشية المجنون بمنى عندما نُطق باسم ليلى. المروية (٦) الشعر ص ٥٦٨، س ٧ ـ ص ٥٧٩، س ١٠ (رقم ٩٩٠): التقاء رجلٍ المجنونَ على الطريق إلى مكة ويأسه وبكاؤه وأشعاره لمَّا ذكَّره الرجل نجداً. المروية (٧) الشعر ص ٥٦٩، س ١١ ـ ص ٥٧١، س ١٧ (رقم ٩٩١): زيارة شيخ من بني مرة عند بني عامر واستعلامه عن المجنون والتقاؤه به في الفيافي.

إن ابن قتيبة لا يشير إلى مصادره ولا يذكر الرواة إلاَّ مرة واحدة. ولو لم تكن لأخباره نظائر في مراجع أُخرى تأتي بالأسانيد لما عرفنا شيئاً عن الروايات القديمة التي جمعها ابن قتيبة. أما معرفة مصادره فسبيل وعر يحتاج إلى مقارنة دقيقة بين النصوص لكي نؤكد أنَّ التطابق بين أخبار ابن قتيبة والأخبار في المصادر الأخرى دليل على أنها رواية واحدة راجعة إلى أصلٍ واحد. أما وجود تشابه بين روايات مختلفة فلا تسمح بالاستدلال على أنها تنتمي إلى راوٍ واحد، ويعرقل عملَنا وجودُ تشابهات كثيرة في أخبار المجنون العديدة. ولا يمكن أن تشمل هذه الدراسة الصغيرة كلَّ الأخبار التي لها صلة بالنصوص والمناقشة هنا. مع ذلك قد يبقى المنهج الذي نعرضه هنا نموذجاً لما يمكن أن يفتح البحث في الروايات المتطابقة لدراسة الأدب العربي القديم.

إن دليلاً واضحاً على مصادر ابن قتيبة ينشأ من المروية (٤) التي نجد مطابقات لها عند أبي الفرج الأصفهاني[١٢]، والسراج[١٣]،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمرزباني[١٤]، ويسند كل واحد منهم بإسنادٍ مختلف إلى الهيثم بن عدي[١٥]. يُذكر الهيثم كذلك في أسانيد الأخبار المطابقة للمرويات (٢، ٣، ٦، ٧)عند ابن قتيبة، ولذلك ولبعض أدلة نوضّحها بعد قليل نعدّه مصدراً والراوي الأصلي لهذه الأخبار أو بعضها. لكن ليس الهيثم أو كتابٌ له المرجع المباشر لابن قتيبة، بل يدلنا نقلُ هذه الأخبار أن ابن قتيبة أخذ عن راوٍ عن الهيثم، وهذا الراوي هو حفص بن عمر العمري الذي ذكره أبو الفرج والسراج كلاهما في إسناديهما لخبريهما المطابقين للمروية (٤) عند ابن قتيبة.

إن التطابق بين رواية أبي الفرج عن العمري ورواية السراج عنه ليس كاملاً فنلاحظ عند الأخير بعض النواقص الصغيرة في سرد حوادث القصة[١٦]، وتطابق رواية السراج روايةَ ابن قتيبة في ذلك تماماً. وإذ لم يأخذ السراج عن ابن قتيبة[١٧]، نلتزم بالاستدلال على أنهما أخذا من مصدر واحد ونظنه العمري وليس الهيثم بن عدي الذي يسند العمري إليه، وذلك لأن رواية ابن قتيبة تطابق روايتي العمري عند أبي الفرج والسراج وتختلف من رواية أخرى عن الهيثم كما نذكر بعد قليل. ونظراً إلى رواية أبي الفرج الذي يسند إلى العمري أيضاً[١٨]، نلاحظ أن هذا الراوي أخبر (أو أُخبر عنه)بروايتين مختلفتين لهذا الخبر. أما رواية المرزباني التي يسندها إلى الهيثم بن عدي عن غير طريق العمري[١٩]، فإنها تثبت أن الهيثم هو الراوي الأصلي ولعله القاص المبدع الذي اخترع ملامح القصة الأساسية. وتُعرِّفنا رواية المرزباني كذلك أن العمري إما راوٍ أو خالق لصيغةٍ خاصة للخبر المأخوذ عن الهيثم، وذلك لأن الروايتين الراجعتين إلى العمري تختلفان اختلافاً واضحاً عن صيغة الخبر التي يأتي بها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المرزباني[٢٠]. ولئن كان اختلافاً طفيفاً لا يؤثر في مضمون الخبر، إنه دليل واضح على طرق الرواية.

سنصل إلى أقدم طبقة ظاهرة في هذه الروايات بعد قليل ولكن لابدَّ من أن نعلِّق على العمري أوَّلاً وله دورٌ مهمٌّ في مجموعة ابن قتيبة. مع الأسف لم نعرف كثيراً عنه. فإنَّ كُتب تراجم الرواة تذكر ثلاثة رجال مشهورين اسمُ كل واحد منهم حفص بن عمر[٢١]، وتسكت عن العمري[٢٢]. ولكن في تراجم الشيعة نلتقي بحفص بن عمرو العمري وهو وكيل أبي الحسن العسكري، الإمام الحادي عشر المتوفى في سنة ٢٦٠[٢٣]. ويرجح الظن أنه الراوي المطلوب لأن أبا الفرج يقتبس منه موادَّ في كتابه «مقاتل الطالبيين»، والمرزباني الذي كان قريباً للبيئة الشيعية يسند إليه بعض الموادّ في كتابه «الموشح في مآخذ العلماء».

نعثر على العمري من جديد في دراسة مرويات أُخرى عند ابن قتيبة. إن المروية الأولى عنده تذكر باختصار محبة المجنون الصبي لليلى الصبية، ويأتي بالأبيات المشهورة التي تعرِّض بمحبتها. أخرجتْ مصادر كثيرة هذه الأبيات بأخبار منتمية إليها، ولكن الصيغة التي وردت عند ابن قتيبة هي أكثر شبهاً بالرواية التي أخرجها ابن الجوزي في كتابه «ذم الهوى» حيث يسندها إلى العمري[٢٤].

فيما يخص المروية (٦) و (٧) فإن العلاقة بين ابن قتيبة وروايات العمري لا تظهر إلاَّ بعد تمحيص أسانيد عديدة ويمكن أن نستلخص هنا نتيجة هذا البحث. ويذكر ابن قتيبة الهيثم بن عدي للمروية (٦) عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الالتقاء بين رجل من نجد والمجنون الذي يوصله أهله إلى مكة طلباً لشفائه. نجد هذا الخبر المسند إلى الراوي نفسه عند أبي الفرج لكنه يأتي بإسنادين[٢٥]، أحدهما عن طريق عمر بن شبة المؤلف المشهور[٢٦]. ويطرح إيراد الإسنادين علينا أكثر من تأويل واحد. فيجوز أن يكون أبو الفرج أورد الإسنادين وكان عنده روايتان متطابقتان، ويجوز كذلك أنه أشار بالإسنادين إلى روايتين مختلفتين ونقل النص لواحدة منهما، أو يمكن أنه اختار من ألفاظ الروايتين المختلفتين ما استحسنه.

على رغم أن لايعطينا إشارة إلى الطريق الذي يتبعه هنا يغلب على الظن أنه نقل لفظ رواية العمري، وأورد الإسناد الثاني لتكميل ذكر الأسانيد. أما الدليل على ذلك فإننا نستخرجه من أمر يشبه هذه الحالة ونتعلم منه أن أبا الفرج نقل هناك النص من العمري. فنحتج بالمروية (٧) التي تخبر عمَّا لاقاه زائرٌ لبني عامر شهد موت المجنون. إن أبا الفرج يقدِّم الخبر المطابق لهذه المروية بخمسة أسانيد، والعمري وعمر بن شبة بين المذكورين فيها[٢٧]. وقد أورد أبو الفرج قبل ذلك ببضع صفحات[٢٨]، جزءاً لهذا الخبر وهو مسنَد إلى عمر بن شبة وحده. ونلاحظ فيما بينهما بعض اختلافات لفظية، والمهم أننا لا نلقى عند ابن قتيبة الألفاظ الخاصة لخبر عمر بن شبة، فنستنتج من ذلك أن أبا الفرج قد نقل لفظ العمري في الخبر النظير للمروية (٧) عند ابن قتيبة. وإن سمح لنا القياس فإننا نظن أنَّ خبر أبي الفرج النظير للمروية (٦) عند ابن قتيبة منقول عن العمري، وليس عن عمر بن شبة. فإذاً تتطابق هذه الأخبار في كتاب الشعر والشعراء وكتاب الأغاني لأنها مأخوذة من مصدر مشترك واحد وهو العمري الذي أخذ ابن قتيبة عنه وحفظ روايته أبو الفرج كذلك.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن كتاب الأغاني يعرض علينا فيما بعد ذلك خبرين يُطابقان المرويتين (٢) و (٥) عند ابن قتيبة، ولا يُذكر فيهما العمري لأنَّ أبا الفرج يسندهما إلى عمر بن شبة الذي يروي عن الهيثم بن عدي[٢٩]، وابن الكلبي[٣٠]. لكننا نشك في استقلال رواية عمر بن شبة عن العمري لما ظهر لنا في أخبار أوردها الطبري وأخذها عمر بن شبة عن العمري[٣١]. بناءً على هذه الملاحظات نعدّ العمري هو راوي هذه الأخبار التي أخذها ابن قتيبة عنه.

أما المصدر للعمري فيفرض علينا الاختيار بين الهيثم ـ والرواة الذين يسند إليهم ـ ولقيط بن بكير المحاربي[٣٢]، الذي يروي العمري عنه في موضعين[٣٣]. ليس هناك داع للشك في صحة هذه الأسانيد من حيث يذكر ابن النديم أن العمري روى عن الهيثم[٣٤]، وأورد ياقوت الرومي في «إرشاد الأريب» أن العمري كان يروي «كتاب النساء» عن لقيط[٣٥]. بالرغم من ذلك يمنع اشتراك الهيثم ولقيط جميعاً في نقل المروية (٧) التي تذكرهما أسانيدها عند أبي الفرج.

السبب بتقديرنا لذلك أن مضمون المروية(٧) وشكلها يقترنان بخبرين آخرين، وهما المرويتان (٤) و (٦) اللتان يُسند الهيثمُ الأولى منهما ـ في الأسانيد عند أبي الفرج والسراج ـ إلى عثمان بن عمارة[٣٦]، ويُسند الأخرى إلى أبي مسكين[٣٧]. فإن العلاقة بين هذه القصص الثلاث لا تتفق بمنشئها عن أُصول مختلفة مستقلة، ولذلك نعدّ الهيثم الذي رأيناه مصدر المروية (٤) ـ مؤلفَ القصص الثلاث ومبدعها ونعدّ أسانيده أو إسناده إلى أبي مسكين على الأقل مشكوكاً فيها. وفي النهاية توصلنا الدراسة مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تقديم الحجج على هذا الرأي إلى مضمون هذه الأخبار وبنتيها القصصية. أما أوَّل التشابهات البنيوية فتخص شهود العيان. فإن عثمان بن عمارة المري يروي في المرويتين (٤) و (٧) عن رجل من قبيلته[٣٨]، وتنطلق القصتان من لقاء «رجل»بليلى أو بأهل المجنون، يعني بأقرانه. وتتميَّز المروية (٦) المسندة إلى أبي مسكين بالبنية عينها حيث يزعم الراوي أن الشاهد واحد «منَّا »[٣٩]، وهو يلتقي مرَّةً أُخرى،مثل ما رأيناه في الخبرين السابقين، بالمجنون وأهله وهم على الطريق إلى مكة. وإن جاز أن ترجع الموادُّ القصصية إلى الرواة المذكورين بمضمونها، فإنَّ شكلها القصصي لا يمكن أن يكون إلاَّ نتيجة صنعة شخصٍ واحد.

ترسم المرويات الثلاث المذكورة صورة كاملة لمصير المجنون في بداية محبته لليلى وإبعادها عنه إلى هيامه وهلاكه. إذا تحدث صاحب الخبر عن سيرة المجنون حكى عمَّا سمع من بني عامر فما رآه إنما هو غيبوبة المجنون وكيف يستيقظ ويظهر شاعراً بمجرد ذكر محبوبته. نريد أن نبرز هنا أن قصة صبابة المجنون بليلى يحكيها أهل قيس لصاحب الخبر إجابةً لسؤاله عن حالة المجنون. تسمح هذه البنية أن تضاف إلى خبر الراوي عما شهد حكايةٌ عن الخلفية التاريخية. ولذلك نرى القاص ههنا متحفظاً ويترك المجال مفتوحاً للتثبت أو لغير التثبت لشخصية المجنون الحقيقية ولثقة ما رُوي فيه. وكل هذا يوجِّهنا في شكل الخبر الذي يحكي فيما يبدو أقوالاً فعلية لأشخاص تاريخية.

إنَّ المروية (٧) تبني نموذجاً متيناً لتركيب هذه القصص ويُعلمنا النظرُ إليها بأهم العناصر الموضوعية التي ترتبط بها القصص الثلاث. السرد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القصصي في صيغة المتكلم وهو رجل من بني مرة قصد بني عامر ليلقى المجنون، وعند وصوله يجد أهل المجنون في حزن عليه. ويروي لنا صاحب الخبر ماسمعه منهم عن قصة المجنون المصاب بالعشق. أما سبب علته، فهو إبعاد ليلى عنه، موضوع قليل الأهمية في هذه القصة وفي مجموعة ابن قتيبة جملةً. لا يُذكر امتناع أبي ليلى عن تزويجها إياه[٤٠]، بعد فشو أمره إلاَّ بكلمات قصيرة، بينما يتكلم أهله بكل التفاصيل عن إقامة المجنون في الفيافي وكيف نجحوا في تزويده بالغذاء واللباس.

وعندما يلتقي الرجل فيما بعد ذلك راوي أشعار المجنون عند بني عامر ويسأله عن حيلة للقاء المجنون في البادية، تتّجه القصة ـ دائماً في صيغة المتكلم ـ إلى مراد صاحب الخبر الذي قصد بني عامر ليشهد المجنون الحقيقي الشاعر. يكشف الراوي عن سره بعد امتناعه في البدء، ويخرج الرجل ويرى المجنون «جالساً على قوز من رمل وقد خط باصبعه فيه خطوطاً». ويتألفه ويستأنسه وينشد له كما نصح له راوي المجنون بعض أبيات لقيس بن ذريح العذري. وتدفع هذه الأبيات المجنون ليردَّ بشعر له ـ ولو كانت نسبته له غير أكيدة[٤١] ـ وبعد ذلك غاب المجنون عن عينه يتبع غزالة[٤٢]، ويجدونه بعد ذلك في واد ميتاً. وهذا الالتقاء هو صميم القصة وقمتها. ولئن دلت مواجهة شعر قيس بشعر المجنون على أن دافعاً من دوافع هذه القصة هو نقد الشعر والموازنة بين الشاعرين، إننا لا ننفي ملامح الواقعية مثل رفض الراوي الكشف عن حيلته لاستئناس المجنون. إنما تُبرز القصة في جزئها الرئيسي تحوُّل المجنون إلى شاعرٍ، وإن إرادة الكشف عن المجنون كشخص حقيقي فله دور مهم يتبلور في اكتشاف قدرته الشعرية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تصف المجنونَ أخبارٌ كثيرة يائساً غلب عليه جزعه، وكونه شاعراً نراه كثيراً ما في هذه النصوص ينشد أبياتاً فصيحة. من اختصاص القصص التي بين أيدينا أن تُبرز فيها التحوُّل من الهائم إلى الشاعر إبرازاً موضوعياً. وصفتْه المروية (٦) بتعبير موجز حيث يُخبر النازل عند ليلى بحالة المجنون:

«يهيم في تلك الفيافي ويكون مع الوحش لا يعقل ولا يفهم إلاَّ أن تذكر ليلى فيبكي وينشد أشعاراً يقولها فيها»(٤٣). وكذلك نجد وصفاً لهذا التحوُّل في المروية (٦) حيث يلتقي صاحب الخبر مرةً أُخرى المجنون وأهله وهم على الطريق إلى مكة. وإجابةً لسؤاله يتحدث أهل المجنون عن حالته المحزنة وأنهم لا يسمحون له أن يخرج لكي يتنفس نسمات نجد حيث كان في زمان صباه يعيش مع ليلى إلاَّ وهم يقيِّدونه حمايةً له. ويطلبون من صاحب الخبر أن يدعي أمام المجنون مجيئه من نجد ليحييَ روح المريض الفاني. وحين يسمعه المجنون يرجع إليه ذكرى محبوبته وينشد أبياتاً يعبر فيها عن حنينه إلى نجد(٤٤). من دون أي إشارة لليلى.

نرى فيما قدمنا من هذه القصص أن موضوعاتها ونقلها وبنيتها القصصية تدل على الترابط بينها الذي يرجع إلى أصل مشترك. فإنْ عيَّنَّا الهيثم بن عدي مبدعاً لهذه القصص لم نقصد أنه وضعها واخترعها تماماً، وإنما لا نُخطئُ إذا قلنا إنَّ قصة المجنون كانت معروفة بشكل أو آخر، وإن الهيثم استخدم ما جرى على ألسنة الرواة وركَّب قصصاً جديداً تابعاً بذلك شكل الأخبار كما كان لائقاً للأخباريين الذين حدَّثوا في المجالس. ونتجرأ على القول إننا وجدنا أكثر من صيغة قديمة لهذه القصة لو حللنا الأخبار الخارجة عن إطار كتاب الشعر والشعراء. ليس في قدرتنا الآن أن نحدد الحقيقة التاريخية لهذه القصة أو أن نستبعدها، وفي كل حال لا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نحتاج إلى هذا الاختيار في ضوء النصوص، لما نرى فيها من تحفظ أمام الحوادث التي هي أساس الحيلولة بين العاشق والمعشوق وليس لها إلاَّ دور هامشيٌّ. إن صيغة هذه القصة يمكن أن تكون نتيجة الاهتمام بمجنون يُتقن في شعره النطق الفصيح، ويشترط هذا الاختصاص في اتجاه القصة وجودَ قصص العشق بكثرة. على خلاف قصص العشاق الأخرى ليس هنا الشعر العنصر الوحيد الذي له مغزى يخرج من إطار حوادث قصة حب، فإن المجنون يظهرفي الأخبار عند ابن قتيبة وبخاصة في الأخبار الثلاثة المناقشة هنا كشخصية يختلط فيها الجنون بوحي الشاعر. لا نريد أن نؤول هذا الموضوع ونكتفي بإشارة إلى أن القصة التي صاغها الهيثم بن عدي (ت.٢٠٧ هـ) قد ترفعت عن الحوادث الواقعية التي صدر عنها ابتلاء المجنون، وبدلاً من الاهتمام بسيرته التي تطور مرضه فيها نجد السعي بوصف حقيقة المجنون الشاعر الهائم.

وإنَّ تباعدَ القصة عن الحوادث المعينة التي يمكن أن نرى فيها الخلفية التاريخية لا يمنع من تقديم القصة في شكل الأخبار التي تدَّعي ارتباطاً مباشراً بالواقع. فإنْ بدا لنا أن الهيثم نحل الأخبار الرواةَ المذكورين ولبَّس ابتداعَه بظاهر إخباري، اتخِذ السند مرة أُخرى وسيلةً لمداراة السرقة(٤٥). إنَّ غرضنا ليس نقد الأسانيد والشك في الثقة بها عامَّةً، لأنَّ النقد ـ والتصديق ـ يحتاج إلى إثبات يُبنى على النصوص المراجعة. إنما كشفنا عن قدرة التشكيل القصصي عند الأخباريين القدامى واختراعهم فيما رووا، إذا اعترفنا بوجود الإبداع في الأخبار القديمة فتح لنا الطريق إلى إدراك صنعة قصصية متطورة تعبر عن غرض قاصٍ فردي نعثر على آثارها الكثيرة في المصادر التأريخية والأدبية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحواشي

(١) انظر ليلى ومجنون لالياس بن يوسف نظامي (ت ٦٠٠هـ)،مجنون وليلى لأمير خسرو (ت ٧٢٥هـ)، ليلى ومجنون لمولانا نور الدين جامع (ت٨٩٨هـ).

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ٥٦٣- ٥٧٣، كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) ٢: ١- ٩٥، مصارع العشاق للسراج (ت ٥٠٠هـ) ١: ٣٣-٣٤، ١٢٥ - ١٢٦، (كذلك ٢: ١٨١)، ٢: ٣٢-٣٣ ، ٣٣ س٥- ٢٠، ٤٦- ٤٨ (كذلك ٢٨٥ - ٢٨٧)، ٥٢ - ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٦- ٦٨، ٧٥ - ٧٦، ٧٧ - ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٩ - ٩٠، ٩٠- ٩١، ٩٩- ١٠٠، ٢٨٧ - ٢٨٨، ويسند السراج هذه النصوص إلى ابن المرزبان (ت ٣٠٩هـ، انظر معجم المؤلفين لكحالة) باستثناء الأخبار في صفحة ١٢٥؛١، ٢؛ ٨٩، ٢٨٥، ٢٨٧، يسند السراج إليه عن طريق واحد، ولعله أخذ هذه الأخبار من كتاب أخبار المجنون لابن المرزبان الذي يذكره المالكي في تسمية ماورد به الخطيب البغدادي دمشق رقم ٣١٧ (انظر الخطيب البغدادي ليوسف العش). ولأشعار المجنون انظر ديوانه، جمع وتحقيق وشرح عبد الستار أحمد فراج، القاهرة بدون تاريخ.

(٣) يقول ابن قتيبة «هو قيس بن معاذ، ويقال قيس بن ملوَّح أحد بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ويقال بل هو من بني عقيل بن كعب بن ربيعة».

(٤) انظر الأقوال والأخبار الواردة في الجزء الثاني من الأغاني، ص٢ س ٦ - ٩، ص٢ س١١ - ص ٣ س ٢ ، ص ٣ س ٢ - ٥ ، ص ٤ س ٣ - ٦، ص ٨ س ٥ - ٦ ، ص ٨ س ٩ - ١٠، ص ٨ س ١١ - ١٤ ، ص ٩، س ٤ - ٦ ، ص ٩ س ٧ - ٩ . ويعيد أبو الفرج ذكر بعض أصحاب هذه الأقوال لأخبار تثبت وجود المجنون: ص٤ س١٠-١٢ ص٦ س٦- ص٧ - ص٧ س٩ للأصمعي، ص٥ س ١-٥ لابن الكلبي، وص٤٤ س٨ - ص٤٦ س ١٥ لابن دأب. وناقش المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي هذه الأخبار في دراسته (تاريخ قصة المجنون في الأدب العربي) التي ترجمها المستشرق الألماني هلموت ريتر إلى اللغة الألمانية في Oriens ، ج٨ سنة ١٩٥٥ ص ٣-٥٥ .

(٥) قارن مثلاً بين الشعر ص ٥٦٨ - ٥٦٩ ومصارع العشاق ٢؛ ٧٧ -٧٨ (ويوجد هذا الخبر في ذم الهوى لابن الجوزي كذلك، ص ٣٨٧)، والشعر ص ٥٦٩- ٥٧١ وذم الهوى ص ٣٩٧ (وانظر فيما يتعلق بذلك مصارع العشاق ٢؛ ٦٦ -٦٧ وكذلك ذم الهوى ص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣٩٨-٣٩٩)، والأغاني ٢؛ ٤٤-٤٦ (كذلك مصارع العشاق ٢: ٤٦-٤٨) وذم الهوى ص ٣٨١-٣٨٣.

(٦) انظر مثلا مصارع العشاق ٢؛٥٨ و ٨٩ - ٩٠ حيث تذكر القلائص كمهر المجنون.

(٧) إن أخبار التقاء المجنون بنوفل بن مساحق (ت. بعد ٦٥هـ، انظر الطبقات لابن سعد ٥؛ ١٧٩ - ١٨٠) غامضة متناقضة. انظر الشعر ص ٥٦٥ س٨- ص٥٦٦ س٢ ومصارع العشاق ٢؛ ٩٠-٩١ (كذلك ذم الهوى ص ٣٩٠ - ٣٩٢) ومصارع العشاق ٢؛٥٧ . وتذكر أخبارٌ التقاءَ المجنون بعمر أو محمد بن عبد الرحمن بن عوف (انظر كتاب المعارف لابن قتيبة ٢٣٧) الذي كان عامل الصدقة لمروان بن الحكم في زمن ولايته على الحجاز ولاتتفق الحوادث فيها، انظر الأغاني ٢؛١٦و١٧، مصارع العشاق ٢؛٨٩-٩٠

(٨) ترجمة ريتر ص٣ ولعل المترجم غلط فيه، لأن المؤلف عرف كتاب ابن قتيبة.

(٩) ترجمة ريتر ص ١٤. علَّق كراتشكوفسكي على القول «فتى من بني مروان كان يهوى امرأة منهم فيقول فيها الشعر وينسبه إلى المجنون وإنه عمل له أخباراً وأضاف إليها ذلك الشعر فحمله الناس وزادوا فيه» (الأغاني ٢؛٨) بأنه قول أيُّوب بن عباية الذي لم يُرد الكشف عن مصادره الحقيقية.

(١٠) أما ديوان المجنون المنسوب إلى الوالبي، ولعله أبو بكر الوالبي الذي يذكره القالي في أماليه (٢؛١٢٦) والسراج في مصارع العشاق (٢؛٧٨) وهو أكبر بقليل من أبي عمرو الشيباني، ليس أقدم من كتاب ابن قتيبة. ونجد في الديوان المنسوب إلى الوالبي خبراً عن أبي عمرو الشيباني (ص ٥٨) وخبراً ثانياً عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي (ت ٢٣٥ هـ، ص ٦٨)، قد تكونان قد أضيفتا إلى الكتاب متأخراً. وإن لم نحتج بهذه الملاحظة نعتقد أنَّ الكتاب مجموعة متأخرة نظراً إلى الشكل المهمل للأخبار الواردة فيه، ونتبع في هذا رأي كراتشكوفسكي (ترجمة ريتر ص ٧).

(١١) يكتفي أسعد خير الله في دراسته لقصة المجنون بالإشارة إلى أن ابن قتيبة قد أتى بملامح القصة الأساسية ص ٥٠، As'ad Khairallah: Love, Madnes and Poetry- An Interpetation of the Magnün Legend. Beirut/Wiesbaden 1980

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١٢) الأغاني ٢؛ ٨٦ - ٨٧.

(١٣) مصارع العشاق ١؛ ٣٣ - ٣٤.

(١٤) أشعار النساء: ١٣٤ - ١٣٦.

(١٥) الأخباري المتوفّى في سنة ٢٠٧ هـ . له أخبار كثيرة في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري، وفي كتاب الأغاني، وكتب أُخرى في التاريخ والأدب. انظر أخباره وتحليلها ودراسة سيرته وآثاره في Stefan Leder, Das Korpus al-Haitam ibn `Adi- Herkunft, Überlieferung, Gestalt Fruher Texte der Ahbar Literatur. Frankfurt 1991.

(مرويات الهيثم بن عدي: دراسة في الرواية والأخبار في الأدب العربي القديم).

(١٦) خلاصة القصة أن النازل عند ليلى وهو لا يعرف من هي جاء من نجد. وتسأله ليلى من أين جاء وتدعوه إلى خيمتها لكي تسمع أكثر من أخبار نجد وأخبار بني عامر. عندما يذكر الرجل حالة المجنون تكشف ليلى عن وجهها ويشهد الزائر حزنها الشديد وبعد ذلك تتعرف إليه. ولا يذكر السراج أنَّ ليلى تدعوه إلى خيمتها، ولذلك لا نجد عنده ماذكر أبو الفرج من الستر الذي أرخته ليلى بينها وبين الزائر، لكن يذكر السراج بعد ذلك بلا مقدمات أن ليلى «رفعت الستر».

(١٧) يروي السراج بإسناده عن ابن المرزبان «قال حدَّثنا القاسم بن الحسن المروزي (انظر تاريخ بغداد ١٢؛ ٤٦٨ رقم ٧٨٧٩) عن العمري قال: قال الهيثم: حدثني عثمان بن عمارة عن أشياخهم من بني مرة» . ويروي القاسم بن الحسن عن العمري عن الهيثم في مصارع العشاق كذلك ١؛ ١٥٠، ٢؛ ٢٤٦.

(١٨) الأغاني ٢؛ ٨٦، «أخبرني عمي وهو الحسن بن محمد بن أحمد الأموي (انظر تاريخ بغداد ٧؛ ٤١٧ رقم ٣٩٧٢) حدثني الكُراني (انظر معجم البلدان لياقوت الرومي ٤؛ ٢٤٧ - ٢٤٨)حدثنا العمري عن الهيثم بن عدي عن عثمان بن عمارة بن حريم عن أشياخ من بني مرة».

(١٩) المرزباني يأخذ عن أحمد بن أبي خيثمة (ت ٢٧٩ هـ، انظر تارخ بغداد ٤؛ ١٦٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ١٦٤ رقم ١٨٤٥)، ويذكر ابن النديم (كتاب الفهرست ٢٨٦) له كتاب المتيّمين، ويروي عن عمر بن بكير (ت ٢٣٦، انظر معجم المؤلّفين ٧؛ ٢٧٩، وفهرست ١١٩)عن الهيثم بن عدي عن عثمان بن عمارة.

(٢٠) أهم ما تتميّز به رواية المرزباني النظر إلى وجه ليلى الجميل. فإن الرجل لايدخل إلى خيمة ليلى هنا وهي لا تتوارى وراء ستر، بل تشهق عندما تسمع أن الرجل من نجد فأبصرها ورآها «فلقة قمر لم تر عيني مثلها ».

(٢١) أبو عمر حفص بن عمر الضرير (ت ٢٢٠هـ): الجرح والتعديل ١١٨٤؛١، الفهرست ٢٨٧، المعجم لابن عساكر ١٠٦. أبو عمر حفص بن عمر الحوضي (ت٢٢٥هـ): الطبقات لابن سعد ٧ ، ٢ ؛ ٥٦، الطبقات لخليفة بن خياط ٢٢٨، التاريخ للبخاري ٢ ، ٣٦٣؛١، الجرح والتعديل ١ ، ١٨٦:٢، الوافي بالوفيات ١٨١؛١٣. أبو عمر حفص بن عمر الدوري (ت٢٤٩هـ): تاريخ التراث العربي ١٣؛١، والجرح والتعديل ١٨٣؛١ـ١٨٤.

(٢٢) لكنَّ ابن النديم يذكر أن حفص بن عمر العمري روى عن الهيثم بن عدي (الفهرست ١١٣).

(٢٣) الرجال للطوسي ٤٣٠، منهج المقال للاسترابادي ١٣٠، أعيان الشيعة ٤١٩؛٢٨ رقم ٥٦٤٠.

(٢٤) ذم الهوى ص٣٨٣، ويروي ابن الجوزي بإسناده عن ابن المرزبان عن العمري عن لقيط بن بكير.

(٢٥) الأغاني ٢٢؛٢ـ٢٤، ويروي أبو الفرج عن عمه عن الكُراني عن العمري عن الهيثم، وعن حبيب بن نصر المهلبي وأحمد بن عبد العزيز الجوهري عن عمر بن شبة عن الهيثم بن عدي عن أبي مسكين.

(٢٦) تاريخ التراث العربي لفؤاد سيزكين ٣٤٥؛١ـ ٣٤٦.

(٢٧) الأغاني ٨٧؛٢ـ٩٠.

(٢٨) الأغاني ١٥؛٢ـ١٦.

(٢٩) الأغاني ١٥؛٢ـ١٦ يقول أبو الفرج في الإسناد «...عمر بن شبة قال ذكر الهيثم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن عدي عن عثمان بن عمارة بن حريم المري)). وعثمان صاحب الخبر الذي خرج إلى أرض بني عامر ليلقى المجنون. لكن يروي عثمان عند أبي الفرج (الأغاني ٢؛ ٨٧-٩٠) - في الخبر المطابق للمروية (٧) - عن شيخ من بني مرة، وهذا أصح. فإن أصل النصّين خبر واحد، كما ذكرنا ينشأ منه رواية عمر بن شبة التي يرويها أبو الفرج هنا. بالرغم من أن مضمونها يشابه المروية (٢) عند ابن قتيبة لا نرجّح أن ابن قتيبة أخذ عنه، لأن المقارنة بين ألفاظ النصوص لا تقدم دليلا على ذلك كما سبق ذكره.

- إن أبا الفرج يروي في كتابه ٢؛ ٤٤-٣٨ عن ابن دأب صيغة مختلفة لقصة حب المجنون.

(٣٠) الأغاني ٢؛ ٢١-٢٢.

(٣١) انظر Stefan Leder: Features of the novel in early historiography, في Oriens ج ٣٢ سنة ١٩٩١ ص ٧٢-٩٦.

(٣٢) المتوفى سنة ١٩٠هـ، انظر تاريخ التراث العربي ١؛ ٢٦٧.

(٣٣) ذم الهوى ص ٣٨٣- مطابق المروية (١)، والأغاني ٢؛ ٨٧ - مطابق المروية (٧).

(٣٤) كتاب الفهرست ١١٣.

(٣٥) معجم الأدباء لياقوت الرومي ١٧؛ ٣٧. ويروي ياقوت هذا القول عن ابن درستويه (ت ٣٤٧هـ). في كتاب الأغاني نرى العمري يروي عن لقيط والهيثم جميعاً (الأغاني ٦؛ ٧٠، ٢١٨، ١٤؛ ٢٩٩، ١٧؛ ٣٧٨، ولقيط عن الهيثم ١٩؛ ١٠).

(٣٦) الأغاني ٢؛ ٨٦، مصارع العشاق ١؛ ٣٣، ولعثمان بن عمارة انظر تاريخ الطبري III/ ٢٨١، أنساب الأشراف ٣؛ ٢٦٦، الكامل في التاريخ ٦؛ ١٢٤.

(٣٧) الأغاني ٢؛ ٢٢، ولأبي مسكين انظر الجرح والتعديل ٢، ١؛ ٢٧٧.

(٣٨) المروية (٤)، الشعر ص ٥٦٤: «خرج رجل من بني مرة». الأغاني ٢ ؛ ٨٦ و مصارع العشاق ١ ؛ ٣٣: «خرج منّا رجل / رحل رجل منّا». المروية (٧)، الشعر ٥٦٩: «خرج شيخ من بني مرة»، الأغاني ٢ ؛ ٨٨: «عثمان بن عمارة المري أخبرنا أنّ شيخاً منهم من بني مرة...».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣٩) الشعر ص ٥٧٨ أو الأغاني ٢ ؛ ٢٣: «الهيثم (بن عدي)عن أبي مسكين قال: خرج منّا فتىً».

(٤٠) منعُ المجنون من الزواج (قارن الشعر ص ٥٦٥-٥٦٦ ، مصارع العشاق ٢ ؛ ٢٨٧)، وبداية حبه في الصبا من الحوافز الواقعية. ومنع أهل بثينة جميلاً من أن يتزوج بها (الأغاني ١٠٨١٨) ونلتقي بمثل هذا الأمر في قصص عديدة (انظر مثلاً مصارع العشاق ١ ؛ ٢١٣ ، ٢ ؛ ١٤٨).

(٤١) انظر ديوان مجنون ليلى رقم ٧٩ ، ص ٩٤ ورقم ٦٤ ، ص ٩٠.

(٤٢) قارن استعمال هذا الحافز في الأغاني ٢ ؛ ٧٣-٧٤، ٨١-٨٢، ٧٨-٧٩.

(٤٣) الشعر ص ٥٦٧.

(٤٤) على شكل الحنين إلى الأوطان، انظر مثلاً ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢: ١٨٦-١٩٤.

(٤٥) نجد عند المسعودي (مروج ٥ ؛ ٧١) خبر أبي الهياج بن سابق الذي قصد بني عامر للالتقاء بالمجنون، ويطابق هذا الخبر بتفاصيله المروية (٧) عندابن قتيبة لكنه، فيما يبدو بإسناد المسعودي، روايةٌ مستقلة عن طريق ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ). كيف نشرح هذا التطابق ونعرف أن الحوادث مثلما يخبر عنها الخبران لا يمكن بالواقع أن تكرر؟ وإنْ كان واضحاً أن النصين راجعان إلى مصدر واحد لم نقدر على تعيينه يقيناً. إما الهيثم أخذ عن أبي الهياج ناحلاً الخبر عثمانَ ولا نرى لنحلْه سبباً، أو الناحل هو الجمحي الذي أخذ الخبر (عن الهيثم) وأخبره كخبر نادر خاص له. وهذا الأرجح لأنَّ دور الهيثم في رواية أخبار المجنون مثبتة في النصوص، وسند الجمحي إلى أبي الهياج مرفوع.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net